WWW.NIDAULHIND.COM

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي وآراءه في النقد والبلاغة

الأستاذ د. محمد راشد الندوي ١

سادتي ! يسعدني أن أتحدث إليكم اليوم في هذه الندوة العلمية العالمية التي تشتمل على الأساتذة و الباحثين عن شخصية علمية أدبيـــة قد ساهمت في شتى العلوم و المعارف ، كما ساهمت في تطوير علوم اللغة و الأدب في شبه القارة الهندية و نالت إعجاب الباحثين و المحققين من علماء الهند و محققي العرب في حياتها و بعد مماتها .

إذا نظرنا إلى هذا الكون وجدنا فيه أنواعاً و أشكالاً من الأمم و الأقوام . تمتاز كل أمة من الأخرى في لغتها و بيانها ، في حضارتها و ثقافتها و في طرق معيشتها . و تمتاز بصحة جسمها و جمال وجوهها ، في دقة إحساسها وسعة أفقها . كما نجد أمة تعيش على جبال شامخة تتمتع و ديانها بخصبة أرضها و زلال مائها و جمال حدائقها و أريج أزهارها ، تشقها نسمات الصبا . فهذه كلها من نعم الله سبحانه و تعالى ، التي أنعم بها على عباده . و هذه النعم متنوعة و مختلفة و مقسمة لذلك ، لا نجد أمة حازت على هذه

• القيت هذه المحاضرة في الندوة العالمية عن «حياة العلامة حميد الدين الفراهي و آثاره» التي عقدت في مدرسة الاصلاح سرائ مير ، أعظم كراه بتاريخ ٧-٩-١٩٩١م .

١. رئيس قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة على كره الهند .

WWW.NIDAULHIND.COM

النعم كلها و لا يمكن لها أن تقول أنها تفوق الأمم جميعاً . فكلما ندقق النظر في هذا الكون و نمعن الفكر يتجلى لنا بأن الله رب العالمين ، رب المشرقين و رب المغربين ، رب الأبيض و الأسود ، رب القوى و الضعيف ، رب العالم و الجاهل ، رب الجميل و القبيح ، و رب الصغير و الكبير فكلما نفكر في خلق الله و ملكوته يزداد إيماننا و تقوى عقيدتنا على ربوبيته و رحمته ، حيث أودع في كل أمة من الخصائص و المميزات .

كانت الأمة العربية تعيش في الصحارى القاحلة و الجبال العارية والرمال الوعثاء . كانت حياتها حياة ضنكة ، و معيشتها معيشة خشنة ساذجة الخيم دارها و ظهور إبلها مركبها ، كانت بعيدة كل البعد من الحضارة و الثقافة ، محرومة من العلوم و المعارف التي تتمتع بها جيرانها من أمم الرومان و اليونان و مصر ، حرمت رفاهية العيش وسعة العلم فعوضها الله بنعم لا تقل منها ، و هي الصفاء في الطبيعة و الفصاحة في البيان و البلاغة في اللسان ، و الحية في الخلق و الجود و السخاء و البعد عن الجبن و النفاق ، و هذه النعم حرمتها الأمم المثقفة المتحضرة . فشاء القدر أن تكون هذه الأمة في المستقبل أرقى أمة في العالم في العلم و المعرفة و نظم الحكم و طرق المعيشة و تقود الأمم الأخرى إلى كل خير و رشد و هداية إذ بعث الله نبياً من أنفسها « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة ، و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[١] .

١- سورة آل عمران آية ١٦٤ .

WWW.NIDAULHIND.COM

فالعرب كانوا فخورين بلغتهم كما كانوا فخورين بأحسابهم و أنسابهم مهما كانت هذه الأنساب و مهما كانت هذه الأحساب ، فعراقة الحسب و أصالة النسب كانت أعز نعمة لدى هؤلاء الأميين ، و كانت اللغة العربية لغتهم التى كانوا يعتزون بها أى إعتزاز و يفتخرون بها أى إفتخار ، فقد نقحوها و رتبوها وأحكموها و زينوا حواشيها و نمقوا أطرافها حتى أصبحت محكمة الأطراف و مرتبة الجوانب متينة التركيب ، رضية الترتيب فكانت مستعدة كل الاستعداد لتكون لغة آخر كتاب سماوى و هو القرآن الذى يكون هداية و نوراً إلى يوم القيامة ، إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ، وقد كان القرآن الكريم آخر معجزة سماوية للانسانية جمعاء و كان نزوله فى هذه اللغة دليلاً بأنها أقوى لغة فى العالم ، و أبلغها . و محكمة الجوانب و الأسس لا يغيرها كر الليالى و مر الأيام و أنها حفظت القرآن الكريم من الضياع و الفناء كما أن القرآن الكريم عصمها و أبقاها وأصبحت باقية ببلاغتها و فصاحتها و أصبحت بفضل القرآن مركزاً للدراسة و البحث . كما أصبحت فى مركز عال و مكانة سامية بين اللغات . من أعجب الأمور و أغربها بأن الاسلام قد قضى على جميع مظاهر الجاهلية و آثارها ، و قد نهى النبى صلى الله عليه و سلم أن يكون فى قلب أى مسلم أى إحترام و اعتزاز للجاهلية و عاداتها اللهم إلا اللغة فانها بقيت موضع إحترام و إجلال و إكرام مع أنها تشتمل على كثير من عادات الجاهلية و آثارها و لكن مع ذلك لم ينصرف العرب عنها حتى بعد الاسلام و لم يهملوها ، فجميع العلوم و المعارف التى انبثقت و نشأت

WWW.NIDAULHIND.COM

بفضل القرآن و الاسلام كانت هى مصدرها و مرجعها فى تفسير القرآن و توضيح نصوص الاســـلام و تأويل الأحكام و استخراج المسائـــل و استنباطها إذا بقيت اللغـــة العربية موضع دراسة و بحث للعلماء و الفقهاء و المحـــدثين و المفسرين من القرون الأولى إلى يومنا هذا . فكل من يريد أن يكون مدركاً باعجاز القرآن و بلاغتـه فلابد أن يدرس الحياة الجاهلية كما لابد أن يدرس الأدب الجاهلى من نثره و نظمـه . و بما فيه من أمثال و حكم . فكلما كان البحث ملما بالأدب الجاهلى و مدركاً روحـه يكون موضع ثقة و احترام و إجلال لدى العلماء و الباحثين من حسن الحظ أن العلماء و الرواة قد بذلوا جهـــدهم و عنايتهم فى جميع أشعار العرب و أمثالهم ، كما بذلوا كل جهدهم فى شرح الشعر الجاهلى و حل لغته و ضبط معانيـــه . لذلك كانت دراسة الشعر الجاهلى أهم مادة دراسية للغة فى جميع العصور ، و كانت المدارس العربيـــة فى جميع العصور و جميع البلدان تعير عنايتها فى دراسة الشعر الجاهلى فى مناهج اللغـة و الأدب ، و انبثقت علوم كثيرة و معارف متنوعـة بفضل القرآن الكريم و الحديث الشريف ، فقد أبدع العلماء المسلمون فيها براعتهم و لباقتهم ، فالأمة العربية فى الجاهليـــة ما كانت تعرف القرأة و الكتابة و لم تكن على أى حظ فى الثقافـــة و الحضارة ، فقد أصبحت تؤلف الكتب فى المعارف المختلفة التى أصبحت فيما بعد معجزة خالدة للاسلام .

لم يمض على بعثة النبى صلى الله عليـــه و سلم قرنان حتى أصبحت المكتبة العربية زاخرة من مؤلفات علمية و رسائل أدبية ما كانت تباريهـــا

WWW.NIDAULHIND.COM

و تنافسها مؤلفات الأمم المتقدمة التى مضت على رقيها و تقدمها قروناً وأجيالاً . فالكتب التى الفت فى الفقه وأصوله حارث العقول فى عظمتها و جلالها . فكتاب « الأم » للامام الشافعى و كتاب « المؤطا » للامام مالك و كتاب « المبسوط » للامام محمد و كتاب « الخراج » للامام أبى يوسف تعد من أروع ما أنتجتها الأقلام فى تاريخ العلم و الثقافة فى العالم .

لما فتح المسلمون البلدان المختلفة دخلت فى الاسلام أمم مختلفة لم تكن اللغة العربية لغتها بل هى حصلتها بجدها و اجتهادها ، لذلك كانت تحتاج إلى علوم و معارف تصونها من الزلل والخطاء فى الكلام و الاعراب و تعينها فى إرهاف الذوق الأدبى فألفوا كتباً فى علوم اللسان و البيان ، هى تعد من أقوى المصادر و المراجع لفهم اللغة إلى يومنا هذا ، و قد عرفت هذه العلوم و المعارف فيما بعد بالنحو و الصرف . « فالكتاب » لسيبويه و « المفصل » للزمخشرى و « المغنى » لابن هشام تعد من نوادر كتب اللغة و أصولها . كأن هذه الكتب لم تغادر صغيراً و لا كبيراً من قضايا النحو و الصرف إلا احتوتها و ضمتها فى طيات صفحاتها ، و لا عنى عنها لأى باحث و لا دارس لهذا الموضوع حتى إلى يومنا هذا . فهذه العلوم إنما نشأت و تطورت بفضل الاسلام . و المسلمون قد طوروها و نقحوها و نظموها و كانت بجانب هذه العلوم علوماً ما كانت العرب تعرفها كموضوع و علم و هذه العلوم هى علوم البلاغة و الفصاحة و النقد . و إنما كانت تعرفها تذوقاً و شعوراً لأنها خلقت و جبلت على تذوق الفن

WWW.NIDAULHIND.COM

و إدراك الجمال بأحاسيسها و أذواقها ، فكانت هذه العلوم جديدة و غريبة لدى المسلمين فاستعانوا فى تطويرها و ترتيبها بعلوم الأمم المتقدمة و كانت هذه العلوم و المعارف معروفة عندها منذ قرون و أجيال فرتبوها فى مراحل مختلفة فى حياة ثقافتها و آدابها .

و حينما بدأوا يرتبون علوم الفصاحـــة و النقد لم ينجحوا فى تطويرها كما نجحوا فى تطوير العلوم الأخرى من الفقه و الحديث و التفسير والفلسفة بل وقعوا فى مزالق و زلل ، و كان تطور هذه العلوم بطيئاً جداً لأن الأسس و المناهج لهذا الفن الرفيع الدقيق لم تكن واضحة المعالم . و السبب فى ذلك أن هذا الفن كان محتاجاً فى ضبط قواعده و مصطلحاته إلى الأساليب العربية الصحيحة ، و لكننا نجد أن الباحثين العرب لهذه العلوم إضطربوا أى إضطراب لأنهم مرة كانوا يستعينون بأذواقهم الخاصـــة كما كانوا يستعينون بالأساليب العربية الأصيلة ومرة كانوا يستعينون فى ضبط تعريفها و ترتيب أسسها و مناهجها بآثار اليونان ، فمرة كانت تغلب على هذه العلوم النزعة اليونانية و أخرى تغلب عليها النزعة العربية التى كان مصدرها الأساليب العربيـــة الصحيحة و القرآن الكريم ، و هنا نجد تيارين مختلفين يسيران جنباً إلى جنب فى تطور علم البلاغـــة و النقد . يمكن أن تسمى هذين التيارين تيار عربى صميم و تيار أجنبى عقيم . نجـــد هذين التيارين مستمرين فى تاريخ الأدب العربى ، و نجد من العلماء و الباحثين حسب منزعهم و ذوقهم و حسب دراستهم و عقيدتهم و فكرهم يناقشون و ينازعون و يخاصمون آراءهم المختلفة .

WWW.NIDAULHIND.COM

لا شك أن الثقافة العربية قد استفادت بهذين التيارين المختلفين المتحاربين المتضادين و المتصارعين ، و لكن الحيرة الفنية النقدية لم تنته بعد و لأن الفكرة الصحيحة و الأسس السليمة كانت فى حاجة أن يعرف علماء العرب و نقادهم الأسس الصحيحة التى قام عليها النقد و الفن اليونانى ، ثم كانوا فى حاجة إلى أن يعرفوا آراء أرسطو من المصادر اليونانية الأصيلة كما كانوا فى حاجة أن يعرفوا الحياة الأدبية و السياسية و الاجتماعية التى كانت قبل أرسطو فى اليونان . و لو سلكوا هذا المسلك و اختاروا هذا الطريق لعرفوا التطورات الأدبية فى المراحل المختلفة و بعد ذلك أخذوا آراء أرسطو و نظرياته بهذه الطريقة ، فكان بامكانهم أن يتجنبوا المآزق و الأخطاء التى وقعوا فيها . لأننا نجد المراحل المختلفة التى مر بها الأدب اليونانى مصطبغاً بالصبغة المحلية ، فالخطب و الرسائل و الأشعار كلها كانت مشحونة بالنزعة المحلية المحدودة و لا نجد فيها النزعة الانسانية العالمية ، فالأدب الانسانى العالمى هو جديد بأن يؤخذ و يقلد و يطبق فى بيئات مختلفة و لغات عالمية أخرى . أما النظريات المحلية الضيقة التى هى نبت الساعة لا تستحق الدراسة و العناية فضلاً عن أن تطبق على لغات أخرى ، و خاصة على اللغة العربية التى نشأت و ترعرعت فى بيئة عربية خالصة مختلفة عن البيئات المختلفة فى ذلك العصر . أما بعد الاسلام فقد تغيرت علوم اللغة و أصبح القرآن مركز الباحث و منبع كل علم و مصدر كل فن و السبب لكل حركة و دعوة .

و أصبحت اللغة العربية محكمة الجوانب وطيدة الأركان لا يغير

WWW.NIDAULHIND.COM

ظاهرها و لا باطنها العوصف الهوجاء - فالبلاغة العربية تقدمت و تطورت بفضل بلاغة القرآن الذى كان نوراً و هداية للانسانية كلها ، و تضاءلت أمامها بلاغة البلغاء و فصاحة الفصحاء ، و انطفأ أمام أسلوبه القوى المتحرك كل الأساليب ، مهما كانت - فكلما أمعن الباحث وجد فى بيانه روحا بديعة و قوة متحركة متجددة كما أن معانيها عالية سامية مثمرة مثلها فكان من الجدير أن يجعل العرب أسس كل بلاغة و نقد تقتبس من بلاغة القرآن و معانيه ، فالبلاغة العربية الأصيلة هى كما يصفها الكاتب العربى الكبير ، أستاذ مدرسة البلاغة العربية الأصيلة أبو عثمان الجاحظ « أفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، و معناه ظاهراً فى لفظه و كان الله قد ألبسه من ثياب جلالته و غشاه من نور حكمته على حسب نية صاحبه و تقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفاً و اللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه و منزلا عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع فى القلوب صنع الغيث فى التربة الكريمة - و متى فصلت الكلمة على هذه الشريطة و نفذت من قائلها على هذه الصفة كساه الله من التوفيق و منحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة و لا يذهل عن فهمها به معه عقول الجهلة » .

فى ضوء هذه العبارة نقدم نموذجاً من القرآن الكريم نستشف منه روح البلاغة و روح الأدب العالى السامى « الله نور السماوات و الأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية و لا غربية يكاد

WWW.NIDAULHIND.COM

زيتها يضيء و لو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء » .

كان ينبغى للنقاد و علماء البلاغة أن يستنبطوا روح البلاغة و النقد من القرآن الكريم و الأحاديث النبوية و قصائد الشعراء الكبار من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى الذى نضجت فيها الأفكار و استقرت فيها الأسس . فكانت البلاغة و النقد العربى فى حاجة إلى غربلة و تمحيص فقد شاء القدر أن يقوم بهذا العمل الجليل عالم من علماء الهند و هو الشيخ العلامة حميد الدين الفراهى ، هو عالم قل نظيره و مثيله فى عصره ولد فى سنة ١٨٦٢م فى قرية « فرهيا » من محافظة أعظم كره بولاية أترابرديش فى أسرة مؤسرة غنية ، كان أبوه إقطاعياً كبيراً . فنشاء و ترعرع فى رفاهية و نعمة . يقول عنه العلامة الكبير شبلى النعمانى « من الحقائق المقررة أن الانسان إذا بلغ ذروة المجد و الكمال من المعرفة و العلم نال الشهرة و السمعة فى عصره و لكن قد يستثنى منه بعض الناس منهم العلامة الشيخ حميد الدين الفراهى الذى بلغ القمة فى العلم و المعرفة و لكنه آثر الخمول على السمعة و الاعتزال على الشهرة و هو صاحب كتاب عجيب فى بابه ، نادر فى موضوعه و هو « جمهرة البلاغة » — درس الشيخ حميد الدين الفراهى فى المدارس القديمة . و أنهى فيها الدراسة الأدبية و الاسلامية ، ثم درس على كبار شيوخ الهند و علمائها ، مثل فيض الحسن شارح ديوان الحماسة الذى هو أستاذى أيضاً ، و بعد إنهاء الدراسة العربية و الاسلامية أقبل على دراسة العلوم الجديدة و اللغات المعاصرة ، فانتسب

WWW.NIDAULHIND.COM

بجامعة على كراه الاسلامية و حصل شهادة الليسانس فى الآداب - و حينما جاء إلى جامعة على كراه كان قد أتقن اللغتين العربية و الفارسية و كان يكتب فيهما و ينطق بهما بالطلاقة بل كان يقول الشعر فيهما كليتهما ، حتى كان ينافس شعراء العرب و الفرس فى اللغة العربية و الفارسية - أثناء قيامه بجامعة على كراه قد نقل عدة كتب من اللغة العربية إلى الفارسية فى السيرة النبوية العطرة و أصبحت هذه الكتب فيما بعد من مقررات قسم الديانة و الاسلام . و بعد تخرجه من الجامعة عين أستاذ فى اللغة العربية فى مدرسة الاسلام بكراتشى ، و هو إلى الآن على هذا المنصب العلمى الجليل ، و قد طبع ديوانه الفارسى فنال إعجاب العلماء و الشعراء فى الهند . و استمر فى الدراسة و البحث طول حياته . و كان جل إهتمامه دراسة القرآن الكريم ، و كان يرى أن القرآن لا يمكن إدراك معانيه السامية و الوصول إلى كنهه و أسراره و التذوق ببلاغته و فصاحته إلا بدراسة اللغة التى نزل بها ، لذلك انكب على دراسة الشعر الجاهلى و الأدب الجاهلى فقرأ كل ما وصلت إليه يداه من دواوين الشعراء الجاهليين و كتب الأنساب ، ثم درس الحديث الشريف دراسة جدية ، و بعد ذلك انكب على دراسة العلوم التى تفرعت و تطورت بفضل القرآن و هى علوم النحو و الصرف و علوم اللغة و البيان و ما ظهرت فيها من كتب النقد و البلاغة ، فأدرك بذوقه العلمى الفنى العالى ما فى القرآن و ما فى الأدب العربى من قوة و حياة و ما فيه من فصاحة و بلاغة ، فكان يحس و يشعر بل كان يرى بعينيه ما فى اللغة من جمال و بهاء كما ينظر الرجل

WWW.NIDAULHIND.COM

المتذوق الماهر إلى الأزهار المتفتحه و الأوراد الباسمة فى الحديقة البهيجة الغناء فيتمتع بأريجها و نكهتها كما يتمتع بنضارتها و سحرها. فلما درس العلامة الفراهى كتب العلماء و الأدباء فى النقد و البلاغة و إعجاز القرآن رأى أن هذه الكتب لم تبحث و لم تدرس الأدب العربى الأصيل والقرآن الكريم دراسة مثمرة منتجة، بل هى دراسة عقيمة جوفاء، لا تخلق فى القارىء الذوق الأدبى السليم و لا توصله إلى بلاغة الأدب العربى الصحيح و لا توصله لفهم إعجاز القرآن الذى هو المثل الأعلى فى البلاغة و البيان - فبدأ يبحث المصدر الذى استفاد به علماء البلاغة و البيان فتيقن أن هؤلاء جميعاً جعلوا الكتب اليونانية مصدرهم و خاصة إمامهم و أستاذهم أرسطو. -

كان الأستاذ الفراهى يعرف اللغة العربية و الفارسية و الأردية و كان تيقن الانجليزية إتقاناً تاماً و يعرف اللغة اليونانية، و يقرأ فيها الأبحاث و العلوم. فقد استطاع أن يدرس جميع ما كتب فى اللغة العربية و فى علوم اللغة و البلاغة و النقد كما قرأ ما كتب فى الانجليزية من النقد و البلاغة و ما درس علماءها و نقادها كتب أرسطو و آراءه فى الفلسفة و السياسية و الخطابة و البلاغة و النقد، فاستطاع أن يدرك بعلمه الوافر و ذوقه المرهف و تجاربه العلمية الواسعة أن الفساد و الخلل الذى وقع فى اللغة العربية و ما وقع علماءها فى الأخطاء إنما سببه هو أرسطو و ما كتب فى البلاغة و النقد - هنا شمر عن ساق الجد و بدأ ينقد الثقافة اليونانية و آدابها و يهدمها هدماً و كان يريد بذلك أن يكشف الغطاء عن الحقيقة و يعرف الناس ما هى البلاغة العربية و ما هو النقد العربى الصحيح،

WWW.NIDAULHIND.COM

فكتابه « جمهرة البلاغة » يدور حول هذه الفكرة - نحن نقدم هنا القتبسات من كتابه لنصل من خلالها إلى ما قدم من آراء جديدة و أفكار مبتدعة فى هذا الموضوع :

أولاً : هو يبحث البلاغة عند العرب و البلاغة عند اليونان فيقول :

« فاعلم ليس أن العرب أعطوا البلاغة و لم يعطوا تمييزاً بين محاسن الكلام و مساويه و انتباها لمواضيع الجودة و الرداءة فيه فانهم كانوا يباهون لبراعة الكلام ، و يحكمون بينهم من كان أبصرهم بنقده و الأخبار فى ذلك كثيرة . حتى بلغ أمر البلاغة فيهم منزلة نظام المعاشرة . فكان خطيبهم يأخذ بزمام القوم و يقودهم إلى حيث يشاء ، و يقوم شاعرهم فيرفع قومه من الأرض إلى السماء فأجدر بقوم هذا شأنهم أن يجرى ذوقهم فى هذه الصناعة على سنة أصول معلومة . و إلا كيف يقضى فيهم حكمه و كيف يذعن لحكم أرباب العقل فيهم و إن رأيت فى كتب الأدب نقدهم و بيانهم و وجوه المزية لكلام على كلام علمت باليقين صدق هذه الدعوى ، و ذكرنا نبذا منه فى باب إختيار اللفظ ، ثم علمت أن سبيلهم فى نقد الكلام لم يكن كسبيل صاحب أسرار البلاغة و هو القدوة للذين جاؤا من بعده فاتبعوا خطواته . فكان سبيله سدا بينه و بين العرب ، فلو التزموا كلام العرب و لم يلتفتوا إلى أصول مهدها المبدعون لكان خيراً لهم و كانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن من طريق الذوق و لم يكن من طريق الصناعة »

WWW.NIDAULHIND.COM

و كانوا أقل عذراً من أرسطو و هو أول كاتب يوجد رأيه فى هذا الفن فبدأ كتابه فى الشعر بقول كاد يهديه إلى الصواب حيث قال :

« إن أصناف الشعر و النغم جنسه الأعلى محاكاة فان الانسان إما من الفطرة أو من التعلم يحاكى أشياء مختلفة بوسيلة اللون و الشكل أو بالصوت » فلو قال إن الشعر بل كل كلام و نغم جنسه الأعلى تصوير لكان أقرب إذ ليس بين المحاكاة و التصوير إلا فرق يسير و لكنه أبعده عن الصواب و خطاه فى غاية الشعر و مادته و مبدئه و كان مثار خطاه كلام قومه و استعمالهم إياه ، و لو بحث عن أمر الشعر على طريق الفلسفة و نظر فيه من جهة العلل التى ألح على البحث عنها فى ما بعد الطبيعة ورد فيه على الحكماء الأقدمين لم يخف عليه الصواب بعد الاقتراب و لم يلتبس عليه غاية الشعر فمرة يزعم أنها الأثر و الاطراب وحينا يزعم أنها القصة لأن العمل غاية كل شىء لا الصفة . و هذا مع الخبط مغلطة أخرى ، فان العمل لا وزن له من دون الصفة و لكن هذا أمر يخرجنا عن فن البلاغة إلى علم الأخلاق . و إنا لنحسن الظن بأرسطو فنقول لعل كتابه على الشعر بداية ريعان حكمته ، و كان أولى بنا الصفح عن إبراز باطله لو لا أن رأينا أثره قد تغلغل فى هذه الصناعة و الناس أذعنوا له فيما مهده فانه عندنا لأقرب عذراً من علمائنا الذين كتبوا فى البلاغة بعد ما رأوا إعجاز القرآن و عجائب لغة العرب و ظنى به أن الرجل لو كان فى العرب و رأى حسن كلامهم

WWW.NIDAULHIND.COM

أصاب الحق ، و لكنه نظر فى كلام قومه فبنى فن نقد الشعر حسب ما وجد فى أحسن كلامهم و لما كان حل أشعار اليونان قصصاً و حكايات مكذوبة مثل نظم هوميرس و سوفاكليس و غيرهما فأمعن فيهما لاستنباط أصول النقد و مناط المحاسن ، و هذا هو الطريق ، فان المحاسن توجد أولاً ثم يستخرج أهل النظر منها الأصول ، كما أن أصول الطبيعيات تستخرج عن آثاره و لكن قلما يسلم المرء عن الخطاء فى استنباط أصول الآثار فان الشيء المؤثر يستجمع عدة صفات ، فالمستنبط ربما يتوهم صفة الغالبة على سائرها مناط الأثر الذى يطلب أصله ، مثلاً إذا رأى زنجى أن الانسان أكثر عقلاً و أبين لساناً من سائر الحيوانات و رأى أن الصفة الغالبة الفارقة الظاهرة هى سواد جلده و تعريه من الشعر فتوهم أن الأسود الناس أكثر عقلاً و بياناً من غيره ، فاذا رأى رجلاً على غير هذه الصفة ظنه أشد الناس بلادة وعيا لاستبعد هذا الأمر من الملقبين بالحكماء ، ألا ترى ابن سيناء كيف غلب على ظنه أن الحياة و القوى من الحرارة و أن النضج أشد ما يكون فى الأقاليم الحارة ، فأكمل الناس بنية يسكن تحت خط الاستواء ، و لمثل هذه التوهمات أمثلة لا تحصى . فان موقف المستنبط للاصول موقف صعب فكثرت فيه مصارع الحكماء حتى لا يخفى على العامة شدة إختلاف فهم فيما بينهم و حسبك منه هذا القدر هنا .

WWW.NIDAULHIND.COM

فكما رأى أرسطو أن غالب صفة الكلام المستحسن كونه قصة و حكاية عن الوقائع ، ثم رأى أن هذه الحكايات ربما لا تطابق الواقعات و بكذبها لا تزداد إلا حسنا . غلب على ظنه أن حسن الكلام فى كونه حكاية ، ثم التمس المثال فوجد أن التصوير يستحسن و إن كان يحكى شيئاً قبيحاً ، ثم أحكم هذا الرأى بالتماس علاقة بين الاستحسان و الحكاية فاعتصم بأمرين :

الأول : إن الانسان حاكية بالطبع أكثر من سائر الحيوان ، فهذه الصفة عن سبب طبعه و أحبها إليه ، و الثانى أن العلم مرغوب بالطبع و حكاية الشىء كخبر عن المحكى عنه فلذلك هى محبوبة فاذا رسخ هذا الرأى عنده إستقام عليه و تعصب له ورد على كل امرىء رأى خلافه ، مثلاً استحسن جواب سوفاكليس حين أخذوا عليه أنك وصفت الناس خلاف صفتهم فقال :

« إنى وصفتهم كما ينبغى و بوراب ديس وصفهم كما هم عليه »[١] .

ثم لما كان جل أشعارهم للتلذذ و التلهى فى محافل المسامرة و نادى اللهو بحكايات مضحكة أو مبكية لم يجد لمحاسن الأشعار غاية إلا الاطراب ، فقال إن يكن الصدق لا يطرب فينبغى للشاعر أن يزيد أو ينقص ، و لم يكن فى هذا الرأى بدعا فى قومه ، فانه ظن كما ظنوا ، فان اسم الشاعر عندهم المختلق الذى يضع الحكايات و القصص لاطراب السامعين .

و لما رأوا أن أرسطو أسس الأمر على مهارة لاختلاق ،

١- جمهرة بلاغة للاستاذ الفراهى ص : ٤-٦ .

WWW.NIDAULHIND.COM

سبق إلى ظن بعضهم أن أحسن الشعر أكذبه ، و إذ ليس فى أشعار العرب من أمر القصة و الحكاية إلا التشبيه ، ظنوا أن الغلو فى التشبيه من المحاسن و كما أن المحاكاة صارت عمود الرجاحة عند أرسطو فكذلك صار التمثيل و التشبيه الذى يشابه القصة عندهم قطب البلاغة ، ثم إنهم وافقوه فى عين هذا الرأى فانه قال فى عد محاسن الكلام ، إن أعلى كمال البليغ أن يكون حاذقاً فى إستعمال التشبيه ، و قال صاحب أسرار البلاغة ، كان جل محاسن الكلام إن لم نقل كلها متفرعة عنها (أنواع التشبيه) و راجعة إليها فانظر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ..

فدخل فى الكلام بذكره و خرج به ، و كان نتيجة هذا الرأى أن المتكلفين من المولدين عكفوا عليه فغاب عنهم ما كان للعرب من سحر الكلام و إعجازه و الوقوف عليه ليس الآن يبعد عنا و لج بهم المثلل من جهة الأخرى فانهم وجدوا الاستعارة ألذ من التشبيه النمسوا الفرق بينهما فبادر إلى فهم إنه هو الغلو فانك مثلاً إذا قلت زيد كالأسد فانما شبهته بالأسد و لكن إذا قلت رأيت أسداً فكأنك جعلته عين الأسد فغلب على ظنهم إن الحسن أميل إلى الكذب ، و ستعلم أن العرب لهم أخر لمحاسن الكلام و إنا لا ننكر محاسن التشبيه و أنواعه و لكننا نجعله متفرعاً عن أصل غير التشبيه ، و أساسه الصدق خلاف ما سمعت من مذهب أرسطو و أمثاله كما نبين لك حينما نكشف عن أصل البلاغة بعد ما

WWW.NIDAULHIND.COM

أشرت إليه بالاجمال من مذهبهم فى كنه محاسن الكلام و غايته والسبيل إليه لا أراك ترتضى به و كيف يرتضى عاقل بأن يضرف همته إلى أمر علته التكلف كالقردة و إسمه الاختلاق و ناصره الكذب و غرضه التلهى و لا سيما إن كان ممن يعلم أن البلاغة من أهم كمالات المرسلين و لا سيما إن كان من الذين يؤمنون بأنها من المعجزات أعلاها و أوفاها و أبقاها و لا سيما و إن كان ممن قام لدلالة الناس إلى حقيقتها و الايضاح عن أسرارها فان صدق ظنى بك . و أرجوه صادقاً ماج بك الشوق إلى قصد السبيل بعد الحيادة عن جادته .

من خلال هذا المقتبس الطويل يمكن أن تعرف تامة آراء الأستاذ الفراهى حول اللغة العربية و أصولها و طبيعتها كما نعرف آراءه البلاغية معرفة تامة ، يرى أن الأستاذ الفراهى يؤمن أن العرب أمة قد جبلها الله على بصيرة تامة على محاسن اللغة و بلاغتها حتى إنهم فى الجاهلية كانوا يحكمون من كان أبصرهم بمعرفة اللغة و نقدها ، و كانت معرفة اللغة عامة شائعة بين الشعراء و الأدباء و إن لم تكن أسس البلاغة و نقدها مكتوبة مدونة مع ذلك كان ذوقهم فى اللغة و البلاغة يجرى على سنة و أصول معلومة نجد آثارها منتشرة فى كتب اللغة و الأدب و التراجم .

يشرح الأستاذ الفراهى هذه الآراء و الأفكار فى كتابه المشهور « التكميل فى أصول التأويل » يقول : « و هكذا علم النظار إنما أسسه

---

١. جمهرة البلاغة ص : ٦—٧ .

WWW.NIDAULHIND.COM

أرسطو و كان الناس قبله و بعده يستعملون النظر و الاستــدلال مع عدم التعلم و التمرن بأصول المنطق ، بل المنطق قطرة من علم النظر الذى أودع الله فى فطرة الانسان ، فمن أحدث و استخرج مثل هذه العلوم ربما قصر و فرط و زاغ ، لذلك كثرت الاختلافات فيها و صار المشتغل بها أبعد عن سلامة الفطرة ، ألا ترى فى كثير من المشتغلين بعلم العروض و المنطق و هكذا قولنا فى علم أصول الفقه . ألا ترى أفقه الأمة و أعمقهم نظاراً فيه إنما كانوا قبل تدوين هذا العلم . ألا تراك تتطرب من شعر أو تهتز من خطبة ، ثم حاولت أن تبين وجوه المحاسن صعب عليك . ثم ترى من سمع بيانك ربما لا تحس بشيء من الاهتزاز بل كلما يزداد التفسير قلت التأثير ، لذلك ترى المتوغلين فى هذه العلوم العقليـة و النظارية أبعد عن تحقيقها من أعطى فطرة سليمة و طبيعة مستقيمة .

و لا شك أن كثيراً من الصحابة إذا فسروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر و السحاب الهاطل يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علماً و حكمـــة ، و لكن مع ذلك ، بل لذلك لم يستطع السامعون أن ينقلوه للخلف . ألا تراك تجلس فى مجالس الوعظ و الخطب و ترى صدرك قد إمتلأ و عقلك قد وعى معارف ، و لكن لا تستطيع إلقاءها إلى غيرك ، بل تراك تضمحل هذه المعارف و تمحى عن قلبك ، و لكنك تجد أثرها قد بقى ، و هكذا كانت خطب النبى صلى الله عليه و سلم و خطب البلغاء لم يحفظوها و لم يرووها إلا نبذا منها مع بقاء آثارها فى القلوب ، و ما رووا إنما هى قطرة من عباب »[١] .

١ـ التكميل فى أصول التأويل للاستاذ الفراهى ص: ١١ــ١٢ .

WWW.NIDAULHIND.COM

هنا نذكر ما أفاد الأستاذ الفراهى على هامش نفس الكتاب بعنوان « الفرق بين العلم الفطرى و العلم الرسمى ، العلم الذى حصل على طريق الفطرة لا يحس به صاحبه ، فانه ليس عنده فى صورة القضايا الكلية ، و لا يظهر عمله إلا عند وقوع الضرورة و يكون الحكم به حكماً جزئياً و أما صاحب العلم الرسمى فعنده أصول و كليات منضبطة ربما يحكم بها من غير وقوع المثل و الكليات المنضبطة ربما تكون قاصرة و ربما زائغة ، فالحكم بها كثير الغلط لذلك كثر الاختلاف فى أهلها و لذلك كانت العلماء السلف و الحكم يكرهون السوال و الحكم ، قبل حلول الواقعة » .

أصحاب العلم الرسمى بعد التمرن الطويل ربما حصل لهم الذوق الفطرى و إن كان أدون من الذوق الفطرى الذى حصل لذوى العقول السليمة ، فهم يقربون من أهل العلم الفطرى و يسمون ذلك ملكة و عند ذلك تضمحل العلوم الرسمية و أصولها و فروعها »[1]

و لكن حين تطورت الثقافة العربية و توسعت المعارف الاسلامية أصبحت قضية إعجاز القرآن و فن البلاغة فناً يدرس على أسس و أصول ، فمن سوء الحظ أخطاء علماء العرب حيث جعلوا أسس علم البلاغة و أسس إعجاز القرآن على أسس العلوم اليونانية غير العلوم العربية ، و طبقوها على اللغة العربية . و أصبحت هذه العلوم علوماً صناعية . و الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كان أسلوبها أيضاً أسلوباً متكلفاً عقيماً لا يحرك شعور القارئ و لا يخلف فى نفسه ذوق البلاغة و الفصاحة و النقد الصحيح

١- التكميل فى أصول التأويل للاستاذ الفراهى محرك: ١٢

WWW.NIDAULHIND.COM

و استمر هذا الأسلوب الملتوي على مر القرون ، فنرى الأستاذ الفراهي ينقد هذا الأسلوب الجاف ، كما ينقد آراء علماء البلاغة الذين ضلوا السبيل ، بعد ذلك نرى الأستاذ يتكلم عن غاية البلاغة و عن تعريفها بأسلوب علمي دقيق مشتملاً على المعاني السامية و الأفكار العالية فيقول :

« إن الانسان في فطرته ناطق . فان النطق هو الفصل المقوم له للحاكاة كما زعم أرسطو ، فان الانسان ليس من خلاله المحاكاة كما يرى في بادي الرأى ، فانه لا يحاكي أحداً غير الانسان ، فلو كان من طبعه المحاكاة لحاكى كل من مر عليه ، و أما اتباعه والديه و كبراء بيته فسائر الحيوانات مثله ، و حقيقة الأمر أن الطفل له بالقوة خصائل الانسان و رؤيته الفعلة تبعث فيه القوة .

فيخرج كما أن رؤية الضحك تضحك و رؤية البكاء تبكي و رؤية الطعام تبعث الميل إليه ، و بعبارة أخرى إن النطق مودع في فطرته ، و كل قوة تلتمس وسيلة إلى العمل ، ألا ترى إن القوة تلهم إستعمالها ، فمن يعلم النملة الطيران إذا نبت لها جناح ، و المص الرضيع فهكذا محاكاته للصوت ليؤدي ما في نفسه ، و إن أمعنا في واقعة الحال حكمنا بأن الطفل هو المعلم للسان لا المحاكي ، و بيانه أن الطفل هو الذي إخترع الأسماء من قبل نفسه من غير تعليم ، فانه في أول الأمر يعطي مثلاً للماء أسماء فيقول مم مم أو بب بب و كذلك يعطي الاسم أسماء لأبويه ، ماما ، بابا ، فهو المبتدع لا المحاكي و ليس هذا إلا لأن فيه همة وجهوا الأداء ما يريد ، فيحرك الشفة أولاً ، و يلفظ بالحروف الشفوية ، و أول ما يقرع

WWW.NIDAULHIND.COM

صماخه ليس إلا بكاءه و أول لغته ، و مما يرى من أثره على أمه عند ألم الجوع و القزع يتعلم معناه و يستعمله رفعاً و خفضاً ، نحيباً و عويلاً ، فهذا البكاء يفتق آلات صوته و يعلم الجراثيم الحروف الحلقيـــة فيستعد لأداء أصوات أخرى . ثم يأخذ لغة أبويه المصنوعة المبدلة من اللغة الأصلية التى هى أم اللغات . فيؤدى ما فى نفسه من لغته الخاصة لولاها لأداه على جهـــة أقرب إلى وضع آلاته ، فانا لا نرى طائفة من الانسان من غير لغـــة ، و من علمهم غير فطرة الله . فان المحاكاة لابد لها من منتهى و أصل ثابت ، كما أن لكل فرع لابد من أصل و لكل نظرى من بديهى .

نرى أن الأستاذ الفراهى يتكلم على صميم الموضوع الذى يتعلق بفطرة الانسان و كيف هذا الانسان يتعلم النطق و البيان و العقل ، ثم ماذا تكون غاية هذا النطق و هذا البيان و هل يقال إن هـذا النطق نطق صحيح إذا كان بدون هدف معين و غاية شريفة . و متى يسمى هذا النطق بليغاً فيقول :

« و اعلم أن حسن البلاغة و كماله يحتوى حسن ما يبلغـــه من الصور و المعانى و أولى باللحاظ . فلا نقيم وزناً للكلام أبلغ بكمال الصحة شيئاً خبيثاً من نفس متدنسة . فالخرس أحسن من هذا النطق ، و هذا رأى يستدعى بياناً لصحته . فان أبا جعفر قدامـــة صاحب نقد الشعر هو أول من جعله فناً من العلوم قال قولاً يضل به الغافل ، و إن كان له وجه صحيح فقال : ليس فحاشة المعنى فى نفسه ما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب

١ـ جمهرة البلاغة ص : ٨

WWW.NIDAULHIND.COM

جودة التجارة فى الخشب مثلاً ردأنه فى ذاته ، و قال أيضاً : إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً ، بل إنما يراد منه إذا أخذ فى المعنى من المعانى كائنا من كان أن يجيده فى وقته الحاضر ، فلم يرد من الشعر إلا شيئاً نازلاً ، و صناعة دنيئة كما هو وجد أكثر المنتشبين إليه و إليه الاشارة فى قوله تعالى : « و الشعراء يتبعهم الغاوون » و نحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به و كما وضعته الفطرة الالهية و يقتضيه كمال قوة النطق ، و يستعمله الشاعر و الخطيب الجدير بهذا الاسم »[١] .

و نحن نرى الأستاذ الفراهى كيف يناقش موضوع البلاغة مناقشة علميـــة دقيقة ، و يرى أن الكلام البليغ لا يكون كلاماً بليغاً بدون أن تكون فيه الأفكار العالية و المعانى الساميـــة التى ترقى الشعور و ترفع مستوى الانسان ، و يستمر فى هذا البحث إلى أن يقول : « إن الشعر ليس إلا قسماً من أقسام الكلام ، و الكلام ليس إسماً للجرس المحض ، بل هو شيء مركب من المعنى و الصوت و الشيء المركب يحكم بحسنه لحاظاً إلى أصل الأمر فيه ، مثلاً إنك لا تصف باطلاحة وجه رجل أعور أفطس إذا وجدت إحدى عينيه مليحة ، فكذلك الأمر فى حسن الكلام ، نعم إن شئت قلت إن وزن هذا الشعر أو صوته حسن ، ثم نورد هذا الرأى بأمر أقرب إلى الكلام من جهة الابلاغ ، و هو أن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفاً ، و لا إعتبار لتأثر الحمقاء و الأشرار ، فاننا إنما نعطى الأشياء أسماء لحاظاً بسلامـــة الحال ، و إلا لزمك أن تسمى

١- المصدر نفسه ص: ٩-١٠ .

WWW.NIDAULHIND.COM

الكلام حسناً و قبيحاً معاً أو لا تسميه شيئاً ، و هذا أمر يتضح لك كل الايضاح ، إذا بحثنا فى أسباب بلوغ المعانى القلوب ، فترى أن الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذى يبلغ نفسه بقوة فيه و يجد الألفاظ حجاباً و ثقلاً عليه ، كما أن لمكا جعل نفسه سفيراً ، فالبليغ هو المعنى و اللفظ مركبة ، فالمعنى أجدر باللحاظ فى حسن الكلام ، فذلك برهانان ، ثم نعززهما بثالث ، و هو أن العرب لم يحمدوا الكلام إلا لحسن معناه »

ثم نرى أن العلامة الفراهى يتكلم بالتفصيل عن الشعر و الخطابة و يوضح ما بينهما من فرق و اختلاف ، فيقول : « البلاغة أوضح فى الشعر و الخطب إبتداء بذكرهما ، و بيان الفرق بينهما ، قال أرسطو : إن الشعر حكاية عن أفعال الناس إما معاليها و مخازيها و أما أنا فلا أفرق الشعر من الخطابة من هذه الجهة ، بل قد وجدنا الشعر و الخطابة شريكين فى البلاغة فأيهما كان منهما لا يكون أحسنه إلا ما كان أبلغه ، و لكن مع ذلك بينهما فرق عظيم ، فان الفرق بين الشعر و غير الشعر لا يحصر فى الوزن و القافية ، بل للشعر أوصاف أخر ، كما أن الخطيب ليس كل من قال « أما بعد » و الآن نبين وجه الفرق و نوجهك إلى إسميهما عند العرب ، فانهم أحذق الأمم فى التسمية ، فنعما فعلوا حين سموا الشاعر شاعراً أو الخطيب خطيباً . فان الشاعر يشعر بعمل فيهتاج للقول فيقول : كما أن الضحك و البكاء و التثأوب و العرفة و العطسة أفعال غالبة على النفس

١- جمهرة البلاغة ص : .

WWW.NIDAULHIND.COM

فكذلك الشعر ، و ليس هيجانه للقول إلا لأنه أكثر الناس شعوراً (أى إحساساً نفسانياً) فكما أن الجسم من جهة إحساس قامر جسمانى يصدر عنه التشاوب و العطسة فكذلك النفس تشعر بباعث ما من السرور و الحزن و الرضا و السخط و العجب و اليأس و أمثالها فينطق ، ليس المراد بأكثر الناس شعوراً أنه يحزن بأكثر من الناس بل إن شعوره يعمل فيه فينبه متخيله و نطقه و غناه فتيقظ فيه هذه القوة ، أما غيره فشعوره جامد وخامد فكأن الشاعر نبات حى إذا سقت أصله ذهب الماء فى كل عرق منها فاهتز فكذلك الشاعر يدب الاحساس فى جميع مشاعره فيفيض فيه الكلام كما قال عبد الله بن عمر بن عمر بن عثمان رضى الله عنه ، كيف تقول الشعر مع النسك و الفقه فقال إن المصدور لا يملك أن يتنفث ، و قيل لصحار العبدى ما هذا الكلام الذى يظهر منك ، قال شىء نجيش به صدورنا فتفقده على ألسنتنا ، فأما الخطيب فليس هو بأقل شعوراً من الشاعر و لكنه فارق الشاعر فى أنه غالب على شعوره فليس حاله كالمصدور و المتشاوب المقهور ، و لكنه قامر على نفسه و منغمس فى المخاطبين فهمه التأثير فى غيره ، كما أن الشاعر لا هم له إلا الانقياد لقوى تعمل فيه ، فالخطيب لا يفرق الشاعر فى الهيجان ، و لا قلة الشعور ، و لكنه بزيادة صفة عالية استحق هذا الاسم . فالشاعر متلفة إلى الماضى و الخطيب ينظر إلى المستقبل ، فالخطيب أرفع منزلة لفرضه الأعلى و أقوى عقلاً و أشد قوة و أزكى نفساً ، كما أن الشاعر أغنى طبعاً ، و أرق فطرة ، لذلك من نظر فى كلام الخطيب و هيجان قلبه لم يؤمن بعلو غرضه و طهارة نفسه و صحة رأيه لم يفرقه من

WWW.NIDAULHIND.COM

الشاعر ، بل لتصوره البعيد المنتظر الذى لا يراه غيره يظنه مجنوناً ، و لذلك ترى العرب ، وصفوا الخطبة بالحكمة و البيان الفصل ، كما أنهم وصفوا الشعر بالسحر ، فالشعر لخروجه من رقة الطبع وجهة النفس يمس النفس ، و الخطبة لخروجها من صفاء العقل وجهة البصيرة يمس العقل ، فكان أثر الشعر مشابها بالسحر و أثر الخطبة بنور العقل ، ثم لما كان الشعر أنسب بالوزن لعلة ستعلمهـا ، صار الوزن من الصفات الظاهرة للشعر . فان صدر الكلام من جهة العقل فى لباس الوزن فهو فى الحقيقة أعلى و أرفع من الشعر ، و كذلك إن صدرت الخطبة من جهة نفسانيـة فهى أقرب إلى الشعـر . و الانسان يعطى خصائص بعض الشىء لغيره ، و هم كانوا يتعجبون إذا وجدوا فى الشعر حكمة و فى البيان سحراً »[١] .

هكذا نرى الفراهى يدرس موضوعات البلاغة و النقد درساً عميقاً و يتناولها بالدراسة المسهبة و يتعمق حتى يعطى للقارى صورة واضحـة ، كما يعطى فكرة مشرقة يهتدى بها القارىء فى فهم الكلام البليغ و الشعر القوى فى جانب هذه الأبحاث هو يتناول مسألة قوة الألفاظ فى التراكيب و الجمل كما يتناول قيمـة المعانى و الأفكار السامية فى الشعر ، و يدرس قضية الاستعارة و التمثيل و المجاز و مدى أثرهما فى جميع أصناف الأدب و الفن ، و أعطى لكل موضوع نموذجاً نادراً من أمثال و أشعار للتوضيح و التفصيل ما يريده . و كل هذا يدل على مدى قدرته لكلام العرب و قوة إدراكه لفهم المعانى ورقة نفسه للانسجام مع عواطف الشاعر ، من أحسن

١- جمهرة البلاغة ص : ١٦ .

WWW.NIDAULHIND.COM

النموذج الذى قدمه فى التشبيهات قول نصيب :

كأن القلب ليلة قيل يفدى بليلى العامرية أو براح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه و قد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر فمشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا و قد أودى به القدر المتاح
فلا فى الليل نالت ما ترجى و لا فى الصبح كان لها براح

نرى فى هذه الأبيات صورة القلب المضطرب القلق كالقطاة التى وقعت فى شراك و هى ترفرف بجناحيها و تحاول الخروج و الخلاص و لكنها لا تنجح و لا تصل إلى غاية تريدها و تتمناها .

فهذه الصورة الجميلة بما فيها من تشبيهات رائعة و مجازات دقيقة جعلت القصيدة تمثل صورة القلب المضطرب الحائر .

هذه الأبحاث التى تناولها الأستاذ الفراهى هى جديدة و نادرة فى عصره لأن الكتب التى كانت طبعت و نشرت فى موضوع النقد و البلاغة إلى أوائل العقد الأول للقرن العشرين كانت تنهج المنهج القديم و تبحث الموضوعات البلاغية و النقدية التى لا صلة لها بالنقد و الأدب بل هى كانت ألغازاً و رموزاً يحللها الأستاذ و يشرحها كما تشرح كتب الفلسفة و المنطق ، فالأسلوب المنطق و الفلسفى هو كان أسلوب أكثر هذه الكتب فى هذه الموضوعات ، أللهم إلا عدد قليل من المؤلفين أمثال الجاحظ و عبد القاهر الجرجانى .

لقد قرأ الأستاذ الفراهى كتب الجاحظ فتأثر به كثيراً و أثنى

WWW.NIDAULHIND.COM

عليه ثناء حاراً ، و لكنه هاجم عبد القاهر الجرجانى و آزاده ، لأنه رأى أنه كذلك يقلد علماء اليونان فى أراءه البلاغية ، و لكننى أرى أن الأستاذ الفراهى حينما هاجم الجرجانى فكان فى هجومه غير مصيب لأنه لم يدرس الجرجانى دراسة موضوعيـــة بل إنه حين وجد فى كتبـــه بعض الآراء التى تخالف رأيه فهاجم عليـــه هجوماً و لم يراعى الظروف التى ألف فيها الجرجانى دلائل الاعجاز و « أسرار البلاغـــة » حيث أنه إهتم بالمعنى أكثر من اللفظ و الأسلوب .

و هذان الكتابان يعدان من أحسن الكتب فى النقد العربى حتى إن جميع الكتاب فى عصرنا هذا جعلوا آراءه و أفكاره مصدراً أساسيـــاً لأبحاثهم و دراساتهم النقدية ، و إن عدداً كبيراً من المؤلفين و الباحثين فى اللغة العربية فى العصر العباسى هم كذلك بحثوا موضوع البلاغة و النقد دراســـة موضوعية منهم الآمدى الذى ألف كتاباً هاماً باسم الموازنة بين الطائيـــين مع أن هذا الكتاب يدور حول موضوع الموازنة بين الشخصيتين ، و لكنـــه فى أثناء الموازنة أتى بأبحاث من أهم الأبحاث فى النقد و البلاغـــة ، و هذه الأبحاث فى الحقيقة هى من صميم النقد العربى الأصيل ، و كذلك ألف كتابا مستقلاً هاجم فـــيه هجوماً على قدامـــة بن جعفر و سمى كتابه هذا « تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر » فى هذا الكتاب لم يهاجم الآمدى قدامـــة فحسب بل هو فند فيـــه جميع الأبحاث و الآراء التى تبناها نقاد العرب من آراء أرسطو ، إذا ليس من الصحيح أن نقول إن جميع الكتاب و العلماء فى اللغة العربيـــة قلدوا أرسطو ، فهناك كتب أخرى نجد فيها نظريات و أفكار مقتبسة من اللغة

WWW.NIDAULHIND.COM

للعربية لا صلة لها بالفكر اليوناني ، مثلاً كتاب « الوساطة بين المتنبي و خصومه » للجرجاني و المثل السائر لابن أثير و كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ، هذه الكتب من أروع المصادر البلاغية و النقدية في اللغة العربية ، فلو أن الأستاذ الفراهي قرأ هذه الكتب التي ذكرناها لغير كثيراً من آراءه عن علماء البلاغة و النقد ، و لكن من سوء الحظ إن هذه الكتب لم تطبع في حياته ، لذالك لم يستفد منها .

على كل حال ، الاراء النقدية و البلاغية التي قدمها الأستاذ الفراهي في كتابه جمهرة البلاغة ، و الكتب الأخرى التي تبحث عن إعجاز القرآن و تفصيل آياته ؛ هذه الأبحاث جديرة بالبحث و التحليل ، لأنها تكون أسوة لكل باحث و ناقد الذي يريد أن يشتغل في فن النقد و اللغة و ينتج فيهما .

الأستاذ الفراهي إختار اللغة العربية لصياغة الكتابة لجميع آثاره الأدبية و العلمية فهو بهذا العمل الجليل قد أضاف ثروة فكرية و ثقافية و لغوية إلى اللغة العربية و خاصة في زمن كانت اللغة العربية في حاجة إلى مثل هذه الآثار العلمية الأدبية ، لأن الكتب و المؤلفات و الأبحاث التي كانت تكتب فيها إلى عصره كلها كانت سقيمة الأسلوب عقيمة الفكر و كانت شرحاً أو تلخيصاً للكتب العربية القديمة التي ألفت في عصور ضعف فيها مستوى اللغة و الفن و الثقافة ، و كانت هذه الكتب من سوء الحظ من المقررات في المدارس و المعاهد في الهند و في البلاد العربية كلها ، أما الأبحاث التي قدمها الفراهي في النقد و البلاغة هي كلها مقتبسة

WWW.NIDAULHIND.COM

ومستنبطة من النصوص العربية الاصلية ، و بخاصة من آيات القرآن و الشعر الجاهلى ، فرتبها و نمقها على أسس متينة رضية فى لغة عربية سليمة ، أسلوب الفراهى أسلوب عربى صحيح و هو يؤثر الايجاز على الاطناب ، والسبب فى ذلك أنه يقرأ كثيراً ، فتكون فى ذهنه ثروة عظيمة و مادة وافرة للموضوع ، فيركب هذه الافكار و يرتب هذه التجارب ، لذلك يكون أسلوبه أسلوباً مركزاً رضياً و أحياناً نراه يبالغ فى التركيز و الايجاز فيصعب على القارىء فهم الموضوع ، على كل حال إن الأستاذ الفراهى هو من الشخصيات الفذة التى رفعت مستوى اللغة العربية كما رفعت مستوى التأليف و التصنيف فى الهند بل فى العالم العربى كله ، فهو بأعماله و آثاره أصبح معجزة للثقافة العربية و الدينية و يبقى خالداً فى صفحات تاريخ الفن و الأدب .

لا نرى فى الهند عالماً و لا باحثاً قبل العلامة الفراهى تناول موضوع النقد و البلاغة بهذه المقدرة و بهذه الثقة ، كما لا نرى باحثاً بعده إهتم بهذا الموضوع و أضاف شيئاً جديداً إلى اللغة العربية و أما البلاد العربية ، فقد نرى فيها كتباً قد ظهرت و طبعت بعد العقد الثانى من هذا القرن و هذه الكتب أكثرها قد اعتمدت على الكتب التى ألفت فى اللغة الانجليزية و الفرنسية ، لأن النقاد و الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع كانت ثقافتهم انجليزية أو فرنسية ، فنرى أن أكثر الناقدين من أوائل هذا القرن ينقلون آراء الغرب و أفكارهم إلى اللغة العربية بدون تمحيص أو تنقيح و لم يراعوا فيها طبيعة اللغة العربية و لا المستوى الفكرى للشعب

WWW.NIDAULHIND.COM

العربي . و لكن على مر الأيام حين تقدم مستوى اللغة العربية ، و نضج الفكر العربي فبدأ علماء العرب في مصر و في البلاد العربية الأخرى يدرسون آثار العربية القديمة في النقد و البلاغة والنصوص الادبية و الفنية من العصور المختلفة ، ثم درسوا آثار علماء الغرب دراسة عميقة ، كما درسوا تطور الأدب الغربي في لمراحل المختلفة و ما ظهر في النقد و البلاغة بعد ظهور هذه النصوص الادبية و الفنيه فنقلوا الأفكار الغربيه إلى اللغة العربية بعد الغربلة و التمحيص . فكانت هذه الأبحاث مفيدة ، استفادت بها اللغة العربية و لكننا لا نرى من هؤلاء العلماء أتوا بشيء جديد أو بفكر مبتكر ، بل درسوا آراء علماء العرب الأقدمين و آراء علماء الغرب المحدثين فوازنوا بين هذه الاراء المختلفة فقدموها في أسلوب عربي جديد .

أما الأستاذ الفراهي حينما تكلم على موضوع النقد و البلاغة فنراه في كل مرحلة يقدم شيئاً جديداً و فكراً بديعاً ، فهو بأعماله العلمية و آثاره الأدبية أصبح معجزة للثقافة العربية و الدينية و يبقى خالداً في صفحات تاريخ الفن و الأدب .

تعريب
تسنيم كوثر